

في الأدب الفرنسي المعاصر

رومان رولان

Romain Rolland

بقلم علي كامل

تمة

في (النهار الجديد) La Nouvelle Journée (١٩١٢) وهو آخر جزء من قصة (جان كرسstof) كتب رومان رولان يقول: (إن أوروبا الآن توحى للناظر كأنها في ليلة حرب). كتب ذلك قبل أن تعلن الحرب بعامين. وعندما اندلعت الشرارة الأولى عام ١٩١٤ كان رومان رولان في سويسرا. فكان بعبه عن وطنه مساعداً له على أنت يكون حر الرأي بعيداً عن التأثير بضروب الدعاية المختلفة التي كان يصيح بها سياسة الدول المتحاربة - ومنها فرنسا - تبريراً للحرب وحثاً للناس على خوض غمار القتال (كانفاذ المدنية) أو (الحرب من أجل السلام الخالد) إلى غير ذلك من الأقوال

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤ شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات في (جريدة جنيف) Journal de Jenève بدأها بخطاب مفتوح إلى الكاتب الألماني هوبتمان Hauptmann مستنكراً الوحشية الألمانية التي أحرقت بلدة (لوفان) البلجيكية. وقال فيه: (كثير منكم أن يبدو ذلك العنف الذي تاملون به هذه الأمة الكبيرة النفس - يقصد بلجيكا - التي لا ذنب لها إلا الاستماتة في الدفاع عن استقلالها وعن الحق كما فعلتم أنتم الألمان عام ١٨١٣... احتفظوا بهذه القسوة لنا نحن الفرنسيين أعداءكم الحقيقيين. أما أن تتحمسوا ضد نحايكم، ضد ذلك الشعب البلجيكي الصغير السوء الحظ البريء. فياله من عار!) ثم يقول: (ولم تكفوا بأن تأخذوا البلجيك الحية، فأعلنتم الحرب على الأموات، على مجد القرون، فأمطرتهم (مالين) بالقنابل وأحرقتم (روبان)، وأصبحت لوفان تلاً من الرماد، لوفان بكنوزها الفنية وعلمها، لوفان المدينة المقدسة... هل نحاربون الجيوش أم الفكر الانساني؟ اقتلوا الرجال لكن احترموا الأعمال الفنية، إنها تركة الجنس البشري الذي أنتم منه

أسلم بهذا قط وإني لأتمثل في ذهني فكرة مهوشة عن طريقة أخرى ثم استمعت إلى رجل كان عنده كتاب أنا كسجوراس ، كما قال ، وطالع فيه أن العقل هو المصرف والملة لكل شيء ، ولشد ما اغتبطت لذكر هذا الذي كان باعثاً على الإعجاب . وقات نفسي : إذا كان العقل هو المسير فانه سيسير بكل شيء إلى الصورة المثلى ، ويضع كل شيء أحسن موضع ، وزعمت أن من يرغب من الناس في استكشاف علة تولد أي شيء أو زواله أو وجوده ، فعليه أن يرى كيف تكون الصورة المثلى لذلك الشيء من حيث وجوده وسميه وعمله ، لذلك كان لزاماً على المرء ألا يضع نصب عينه إلا الحالة المثلى بالنسبة إلى نفسه وإلى الناس ، ثم عليه بعد ذلك أن يعلم الأسوأ أيضاً ، فالأمثل والأسوأ يجوبهما علم واحد . وسرني ما ظننت أني واجد في أنا كسجوراس من يعلمني ما وددت أن أعلم من أسباب الوجود ، وخيل لي أنه منسبني أول الأمر عن الأرض مسطحة هي أم كرية ، وأنه باسط لي بعد ذلك علة هذا وضرورته ، وأنه معلى طبيعة الأمثل ومظهرى على أن الأمثل إنما هو هذا ^(١) ، فان زعم أن الأرض قائمة في المركز شرح كيف أن هذا هو الوضع الأمثل ، وكنت سأقتنع به لو بين لي ذلك ، وما كنت لأقتضيه غير ذلك سيباً ، وحسبت أنني قد أتمسه بعد ذلك فأسائله عن الشمس والقمر والنجوم ، فيشرح لي سرعتها المقارنة ، ونكوسها ومختلف حالاتها ، وكيف أنها تتجه بميلها المتعددة ، القابضة منها والفاعلة نحو الأمثل دائماً ، وما كنت أتصور أنه إذا ما تحدث عن العقل باعتباره مصرفاً لها ، يعلل وجودها على هيئتها الراهنة بغير علة أن هذه هي الصورة المثلى ، وظننت أنه بعد أن يفرغ من الشرح المفصل لعلة كلٍّ منها وعلتها جميعاً ، سيمضي يبين لي الحالة المثلى لكل منها ولها جميعاً . لقد تناولت الكتب متلهفاً لأعلم أمر الأمثل والأسوأ ، فتلوتهما مسرعاً ما استطعت إلى السرعة سبيلاً ، وقد رجوت آمالاً لم أكن لأبيهما بكثير

(يتبع)

ركي نجيب محمود

(١) أي أنه اعتقد أنه سيجد في نظرية أنا كسجوراس البراهين الكافية على أن الكون في صورة مثلى ، فسقاط لا يطلب تميلاً لظواهر الكون انهو اعتقد بحق انها في أوضاع مثالية ، فلك عنده غاية تكني وحدها أن تكون مدفاً أنصى

تزال منها المظالم وأحقاد الأمم وتجتمع فيها النفوس المتأخية الحرة في العالم أجمع) على أنه لم يكن يطلب تحقيق ذلك عن طريق العنف فهو ألد أعدائه . بل يترك للزمن تحقيقه على مهل حين تسمو النفوس عن الصفائر وتتجرد المعقول مما تتعلق به من الأوهام

لقد رأينا كيف أن رومان رولان في مقالته كان متجرداً من كل خضوع لفكرة وطنية ، أو التأثر بتيار الحماسة الذي كان يجرف أمته كما يجرف كل الأمم المتحاربة . ولذا لم يتردد - كما رأينا - في السخرية من كل رجال الفكر والدين ، لأنهم خانوا مبادئهم النبيلة في الوقت الذي كان يحكمهم فيه تأدية أكبر جانب من مهمتهم في الحياة . كما أنه لم يتردد في إظهار ألمه من تردى العلم في حماة الأغراض ، حين يدعى الأستاذ بيريه مدير الصحف وعضو أكاديمية العلوم في باريس أن البروسيين لا يشتمون إلى الجنس الآري . كذلك كان من الأسباب التي زادت عدد مهاجيه احتفاله بعد أن أعلنت الحرب بصداقة من كان يعرفهم من الكتاب الألمان (إذ ليس حبي لوطني - كما قال - معناه أن أكره أناساً مخلصين يحبونهم كذلك أوطانهم)

كل هذه الأسباب إلى جانب التهم التي وجهت إليه قبل الحرب عن طمعه في العبقرية الفرنسية جعلت عدداً من جرائد بلاده تنشر مقتطفات محرقة من مقالته لتثير عليه الرأي العام . ولقد استطاعت بلوغ ذلك إلى حد كبير . فكان جواب رومان رولان على هذا - أن نشر مقالته في كتاب مستقل في سبتمبر عام ١٩١٥ ، حتى يطلع الشعب الفرنسي بنفسه على حقيقة ما كتب ليعرف مقدار اتهامات أعدائه من الحق أو الضلال . وقد قال في مقدمة كتابه ما يأتي : (إذا باغتت الحرب شمساً عظيماً فإنه ليس عليه فقط أن يدافع عن حدوده ، بل أمامه عقله أيضاً يجب أن يحميه من الحرافات والخروج على العدل ومن السخافات . تلك الأمور التي تطلقها من عقابها المصيبة العظمى . لكل شخص مهمته ، فكما أن على الجيوش أن تحافظ على أرض الوطن ، كذلك على رجال الفكر الدفاع عن الفكر ؛ فإذا سخروه لخدمة شهوات شعبهم ، فقد يستطيعون أن يكونوا آلات نائمة ، ولكنهم يخاطرون بخيانة العقل الذي ليس هو أقل جزء من تراث هذا الشعب) ثم يقول في النهاية : (لقد ظلمت عاماً بأكله غنياً بالأعداء ، والآن أقول لهم : إنهم يستطيعون أن يتخذوا

والذي نحن جميعاً الأمناء عليه . إنكم حين تحطمونه كما تفعلون لأن تثبتون أنكم غير جديرين بذلك التراث العظيم)^(١)

وفي مقالته الثالثة (فوق المعركة) Au-dessus de la mêlée التي أطلق عنوانها على مجموعة المقالات حين جمعها فيما بعد ، نسمع رومان رولان يوجه اللوم الشديد إلى قادة الرأي العام والرؤساء الدينيين والمفكرين والخطباء الاشتراكيين قائلاً : (بين أيديكم ثروات حية ، كنوز من البطولة ، فإذا فعلتم بها ؟ لقد وجهتموها إلى الصراع والموت !) ثم تراه يظهر استنكاره المرير من أن تنتقل شهوة رجال السياسة إلى رجال الفكر فتولد بينهم العداوة (فيصبح أوكين ضد رجسون ، وهويتان ضد مترلك ، ورولان ضد هويتان ، وولز ضد برناردشو . كايتمنى كلنج وداونوزيو ودورينييه وبارس ومترلك بأغاني الحرب والقتال . بينما يطلب الفيلسوف الشيخ قندت - الذي بلغ من العمر الثانية والثمانين - بصوته المخطم من طلبة جامعة ليزج الاشتراك في « الحرب المقدسة »)

وفي هذا المقال أيضاً صرح رولان أن أعظم هيتين خائنا مهمتهما وظهرتا بظهور الضعف أثناء الحرب هما (أولاً) المسيحية : أي السلطة الدينية (وثانياً) الاشتراكية . إذ أن كلا من هاتين الهيتين من أول مبادئهما الدعوة إلى السلام العالمي والأخاء بين الشعوب . لهذا كانت تأييدهما للحرب وقبولها دخول سميها انكاراً لا يليق لبائدهما السامية . (فهؤلاء الاشتراكيون الذين لم يجدوا في نفوسهم الشجاعة على الموت في سبيل عقيدتهم قد وجدوها للموت في سبيل عقيدة الآخرين)^(٢)

وعندما يتكلم عن الباعث الحقيقي على الحرب يقول : (إن العدو اللدني ليس خارج حدود الوطن بل هو رابض داخل كل أمة . وليس هناك أمة واحدة تملك الشجاعة لمحاربتها . إنه ذلك الشبح ذو المائة رأس الذي يسمى التوسع الاستعماري . تلك الإرادة في الكبرياء والتسيطر التي تريد أن تمنح كل شيء فلما الخضوع لها وإلما الهدم . تلك الإرادة التي لا تحتمل مطلقاً أي عظمة ونمو خارج دائرتها)

وبعد أسبوع من معركة المارن أعلن رومان رولان فكرته المالية (ووجوب إقامة المدينة الواسعة الممتدة الأطراف التي

(١) Au-dessus de la mêlée P.6 et 7

(٢) Au-dessus de la mêlée P.29

يعتبر كسارقة من أولئك التمساء ، أولئك السجناء . من تلك الأسر التي تسمى وتمنح في جنيف أن نعد لها أدينا (

ويرى الناقد رينيه لالو^(١) أن هذه الصلابة الشديدة التي نجدها عند رومان رولان في التمسك برأيه والاحتفاظ ببقاء ضميره كرجل أخلاق قد آذته إلى حد ما - كفتان ، إذ أفقدت قصصه كثيراً من الليونة والطراوة . على أن هذا الاخلاص لمقيدته بين عواصف الاقتراء الكاذب ، وذلك الاحتمال الباسم للاضطهاد الذي يمتهه النفوس الصغيرة ، وتلك السمادة في العذاب التي اتمكست عليه من أبطاله بيتوفن وتولستوى وغاندى ، قد جعلت جميعاً منه أحد أعظم قادة الفكر الأوربي الحديث الذين في أعناقهم - هم وسائر مفكرى العالم - يقف مصير المجتمع الانساني على هامس

(١) René Laou : Histoire de la littérature française contemporaine P. 347.

على ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يعلونى أن أكون حقوداً... إن مهمتى أن أقول ما اعتقده عدلاً وإنسانياً (

والواقع أن التهم التي أسندت الى مقالات رومان رولان في (جريدة جنيف) لا أساس لها من الصدق ، إذ خلقتها عداوة بعض الأفراد والجراند من جهة ، ومن جهة أخرى الرقابة على المطبوعات إبان الحرب التي كانت حين تمحذف من مقالاته كثيراً من الفقرات التي ترى فيها تطرفاً لا يجوز نشره ، تترك بذلك المجال لأعدائه لتأويل الجزء الضئيل الباقى تأويلاً سيئاً

وعلى كل حال فقد كان هذا الصراع الهائل بين رجل وأمة داعياً لأن تتسع شهرة رومان رولان بعد الحرب ، وخصوصاً وقد حصل عام ١٩١٦ على جائزة نوبل للأدب^(١) ، وكانت شهرته خارج فرنسا أوسع من داخل فرنسا نفسها ؛ وقد قوبلت كتبه التي ظهرت بعد الحرب بشغف زائد وإقبال عظيم ، قطبت عشرات الطباعات ومن هذه الكتب :

- (١٩١٧) Aux Peuples Assassinés

Colas Breugnon الذي طبع عام ١٩١٤ ولم ينشر إلا عام ١٩١٩ - Clérambault, histoire d'une

conscience libre pendant la guerre (١٩٢٠) -

Le Jeu de l' amour - (١٩٢٤) Les Précurseurs

L' Ame Anchantée (١٩٢٥) et de la Mort

(١٩٢٦-١٩٢٧) Mahatma Gandhi و (١٩٢٦)

Essais sur la - (١٩٢٨) Les Léonides

mistique de l' inde vivante (١٩٣٠)

ولا يزال رومان رولان يعيش في سويسرا

متخذاً إياها وطناً ثانياً له ، محافظاً كل المحافظة

على تفكيره وآرائه التي أنارت عليه الحملات غير

عابى بها ، مؤمناً بذلك الاحساس الذي دفعه الى

أن يقول أثناء الحرب رداً على متهميه في إحدى

مقالاته Lettre à ceux qui m'accusent إن

(الوقت الذي يخصصه للرد على خصم ما إنما

(١) في عام ١٩١٣ كان قد حصل على جائزة

الأدب الكبرى الفرنسية

الوطنية الحقبة

تفضيل الباخرة النيل على سواها

بعد أن أعدتها لخدمتكم

شركة مصر للملاحة البحرية

يأحدث وسائل الترف والرفاهية

رحلات منتظمة يوم الخميس كل أسبوعين

ابتداء من يوم الخميس ٢٣ مايو سنة ١٩٣٥

احجزوا تذاكرهم من الآن من

فرع الشركة بالاسكندرية: ١٤ شارع فؤاد الأول تليفون ٥٤٥ و ٥٤٦ و ٥٤٧

شركة القاهرة - شارع ابراهيم باشا تليفون ٤٦٣٠٣ و ٥٩٦٠

مصر الاسكندرية - ١٠ شارع فؤاد الأول تليفون ٥٦١٧

للسياحة بور سعيد - شارع السلطان حسين تليفون ٤٧٧

ومحلات كوك - والأمريكان اكسبرس - وشركات عربات النوم

وجميع مكاتب السياحة الأخرى